ملحقة المدرسة العليا للأستاذة –جامعة ميلة–

السنة الأولى أستاذ التعليم الابتدائي في اللغة العربية

الأستاذ: أنور طراد المجموعة: الثانية الأفواج: 4–5–6

1. نشأة النحو و دوافع وضعه.

يمكن أن نرد أسباب وضع النحو العربي إلى بواعث مختلفة، منها الديني ومنها غير الديني، أما البواعث الدينية فترجع إلى الحرص الشديد على أداء نصوص الذكر الحكيم أداء فصيحا سليما إلى أبعد حدود السلامة والفصاحة، وخاصة بعد أن أخذ اللحن يشيع على الألسنة، وكان قد أخذ في الظهور منذ حياة الرسول صلى الله عليه وسلم، فقد روى بعض الرواة أنه سمع رجلا يلحن في كلامه فقال: "أرشدوا أخاكم؛ فإنه قد ضل" ١, ورووا أن أحد ولاة عمر بن الخطاب كتب إليه كتابا به بعض اللحن، فكتب إليه عمر: "أَنْ قَنِّعْ كاتبك سوطا..

وما روي أن قارئا قرأ (وأن الله بريء من المشركين ورسوله) فجر لفظ رسوله، وما صحب ذلك من تحريف وفساد في المعنى.

– وانضمت إلى ذلك بواعث أخرى، بعضها قومي عربي، يرجع إلى أن العرب يعتـزون بلغتهم اعتزازا شديدا، وهو ما جعلهم يخشون عليها من الفساد حين امـتـزجوا بالأعاجم، فكان حرصهم شديدا على رسم أوضاعها؛ خوفا عليها من الفناء والذوبان في اللغات الأعجمية.

وبجانب ذلك كانت هناك بـواعث اجتماعية (تعليمية)ترجع إلى أن الشعوب المستعربة أحسّت بالحاجة الشديدة لمن يـرسم لها أوضاع العربية في إعرابها وتصريفها، حتى تتمثّلها تمثلا

مستقيما، وتتقن النطق بأساليبها نطقا سليما. وكل ذلك جعل علماء العربية يشرعون في وضع أسس النّحو.

تلك من أهم الأسباب المباشرة التي دفعت إلى وضع النحو، لكن أغلب الباحثين أهملوا سببا في غاية الأهمية والخطورة جعل النحو ينضج نضجا مبكرا، وتوسعت مباحثه وأبوابه بطريقة تجعلنا نجزم بأن السبب والهدف الأكثر أهمية هو سعي النحاة إلى وضع أسس تفهم بها تراكيب القرءان الكريم، ويوصل بها إلى تمثّل بلاغة أساليبه. ولو كان مقتصرا على تقويم الألسن فقط، لاكتفى النحاة بوضع ضوابط الصحة والخطإ وتحديد ما يجوز وما لا يجوز من الاستعمال، دون أن يتجاوزوا ذلك، ولما كانت هذه المؤلفات العظيمة، وتلك الأبواب النحوية الكثيرة.

2. أشهر النحاة وأبرز مؤلفاتهم:

أ- أبو الأسود الدؤلي وتلامذته:

قدّم أبو الأسود جهودا قيمة ووضع اللبنة الأولى لهذا العلم، ويروى أنه وضع باب التعجب أولا، ثم أتبعه بباب الاستفهام، وحروف النصب،..كما يعزى له الفضل في إعجام المصحف، .....ومن تلامذته:

_ نصر بن عاصم الليثي: 89هـ (وضع نقاط للحروف المتشابهة خطّا..)

_ يحي بن يعمر العداوني 129هـ

_ عنبسة الفيل (لا يعرف تاريخ وفاته).

_ ميمون الأقرن.(لا يعرف تاريخ وفاته)

_ عبد الرحمن بن هرمز(117هـ)

هؤلاء كانت لهم اجتهادات وإضافات على ما جاء به أبو الأسود، خاصة وقد رويت عنهم بعض الآراء اللغوية في القراءات القرءانية. ويمثل هؤلاء الطبقة الأولى من النحاة، وهي مرحلة النشأة والتكوين، تليها الطبقة الثانية وهي:

ب– مرحلة التدوين، ممثلة في:

ـ ابن أبي إسحاق الحضرمي 117هـ

ـ أبو عمرو بن العلاء 154هـ

ـ عيسى بن عمر (149هـ) قيل أن له كتابين في النحو لم يصلا إلينا هما: الجامع، وكتاب الإكمال.

ـ يونس بن حبيب (182هـ) : قيل أن له كتاب معاني القرءان، وكتاب النوادر..

ـ أبو الخطاب عبد الحميد الأخفش الكبير (177هـ) له كتب عديدة لكن لم تصل إلينا، منها: معاني القرءان، وكتاب الاشتقاق.

ـ الخليل بن أحمد(170هـ): واضع علم المعجم (وصاحب معجم العين)، وعلم العروض، وعلى الرغم من عدم تأليفه في النحو كما قيل أو أنه ألف ولم يصل إلينا، فإن سيبويه قد أفاد منه أكثر من غيره، بل إن بعض الباحثين يرون أن أغلب ما ذكر في الكتاب لسيبويه يرجع إلى محاضرات أستاذه الخليل.

عمرو بن عثمان بن قنبر سيبويه (180هـ) (له كتاب لقب بقرءان النحو: عنوانه الكتاب.)

ويرى أغلب الباحثين أن النحو العربي اكتملت مباحثه ووضعت أصوله على يد هؤلاء النحاة، وقد ذكرت المصادر وجود مؤلفات في النحو لهؤلاء لكن لم تصلنا.

ويعد كتاب سيبويه أوّل مصنف في النحو وصل إلينا، جمع فيه صاحبه ما تقدم، وأضاف مسائل كثيرة من اجتهاده، وبوب مسائله، وقسّم فصوله..بل إن النحاة بعده حذوا حذوه، واتبعوا نهجه، ولم يخرجوا في الأغلب الأعم على ما جاء به، أمثال:

- أبو العباس المبرد(285هـ)، من أشهر كتبه: المقتضب، الكامل في الأدب والنقد واللغة، الاشتقاق...

- أبو العباس أحمد بن يحي ثعلب (291هـ): من كتبه: إعراب القرءان، الفصيح...

ج- مرحلة التقويم والتفصيل: ممثلة في:

_ أبو إسحاق الزجاج (311هـ) وكتبه: معاني القرءان وإعرابه، وكتاب الجمل في النحو.

_ أبو بكر بن السراج (316هـ) له كتاب مشهور هو: الأصول في النحو

- أبو القاسم الزجاجي(337هـ) ومن كتبه: الإيضاح في علل النحو، وكتاب الجمل.

- أبو سعيد السيرافي (368هـ)، اشتهر بكتاب: شرح كتاب سيبويه..

- أبو الحسن الرماني(384هـ): ومن كتبه: الموجز في النحو، النكت في إعجاز القرءان، وكتاب شرح كتاب سيبويه.

- أبو علي الفارسي(377هـ)، وكتبه: الإيضاح في النحو، التكملة في الصرف..

- أبو الفتح بن جني(392هـ) من أشهر كتبه في النحو كتاب: الخصائص..

- أبو البركات بن الأنباري(577هـ) من كتبه: الإنصاف في مسائل الخلاف، وكتاب أسرار العربية..

ما ميز هذه المرحلة أن معالجة المسائل النحوية اتخذت منعطفا آخر في التقسيمات والتعريفات والتعليلات تدل على أن نحاة هذه الفترة لم يكتفوا بما قدمه من قبلهم بالاعتماد

على السماع والقياس فقط، بل تجاوزوا ذلك إلى اعتماد المنطق والقياس العقلي، لذلك تشعب النحو وكثر فيه الجدل.

هؤلاء هم أوائل النحاة، وتجدر الإشارة إلى أن حركة التأليف لم تتوقف، بل تواصلت، لكن مع بعض التغييرات في عرض القضايا النحوية، خاصة فيبعد القرن السادس زمن ظهورا المنظومات النحوية للتسهيل وتبسيط النحو.

د- من هو الخليل بن أحمد؟

أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري. وهو عربي الأصل من أزْد عُمان. لغوي ومعجمي ومنشئ علم العروض، نشأ الخليل بن أحمد بالبصرة وتربّى فيها، وكان مولعا بالدرس والبحث. وقد لازم حلقات أستاذيه عيسى بن عمر وأبي عمرو بن العلاء. وأمّا أستاذه عيسى بن عمر فقد كان إماماً في العربية والقراءات، وصنف كتابي الجامع والإكمال. وأبو عمرو بن العلاء كان أستاذاً للعربية وإماماً في دراستها. وقد روى الخليل عن أيوب وعاصم الأحول وغيرهما وأخذ عنه سيبويه والأصمعي والنضّر بن شُميل. قال ابن المعتز: كان الخليل منقطعًا إلى الليث فيما صنفه. وهو أستاذ سيبويه. والحكايات والمرويات المذكورة في كتاب سيبويه كلها مروية عن الخليل وكلما قال سيبويه (وسألته)، أو (قال) من غير أن يذكر قائله فهو يعني الخليل.

وقد وهب الله الخليل بن أحمد ذكاءً خارقًا وفطنة كانت مضربًا للمثل في عصره. وجمع إلى ذلك تقوى وزهداً وورعًا وهمّة عالية. وقد فُتحت له مغاليق أبواب العلوم ، فهو عالم اللغة والنحو والعروض والموسيقى وكان شاعرًا.

هـ- من هو سيبويه؟

اشتهر بلقبه سيبويه، وهو لقب أعجمي يدل على أصله الفارسي، واسمه: عمرو بن عثمان بن قنبر، من موالي بني الحارث بن كعب، ولد بقرية من قرى شيراز تسمى البيضاء،

قدم البصرة وهو لا يزال غلاما ناشئا، والتحق بحلقات الفقهاء والمحدثين، ولزم حلقة حماد بن سلمة بن دينار المحدث المشهور حينئذ، وحدث أن لفته إلى أنه يلحن في نطقه ببعض الأحاديث النبوية، فصمّم على التزود أكبر زاد بشؤون اللغة والنحو، ولزم حلقات النحويين واللغويين وفي مقدمتهم عيسى بن عمر والأخفش الكبير ويونس بن حبيب، واختص بالخليل بن أحمد، وأخذ منه كل ما عنده في الدراسات النحوية والصرفية، مستمليا ومدونا.

ولم تذكر كتب التراجم أنه رحل إلى البادية في طلب اللغة والسماع عن العرب ومشافهتهم، غير أن ما يتردد في كتابه من مثل قوله: "سمعنا بعض العرب يقول", و"سمعنا العرب تنشد هذا الشعر", و"سمعنا من العرب", وهو "كثير في جميع لغات العرب", و"عربي كثير", و"عربي جيد", و"قد سمعناهم", و"قال قوم من العرب ترضى عربيتهم", و"سمعنا من العرب من يوثق بعربيته" يدل –في رأينا– على أنه رحل إلى بوادي نجد والحجاز مثل أستاذه الخليل. والكتاب يفيض بسيول من أقوال العرب وأشعارهم، تؤكد أنه رحل إلى ينابيع اللغة والنحو يستمد منها مادته.

ولما توفي الخليل خلفه –على ما يظهر– في حلقته، إذ نجد كتب طبقات النحاة تنص على طائفة من تلاميذه مثل الأخفش الأوسط وقطرب، وأكبّ حينئذ على تصنيف الكتاب، وسرعان ما أخذ نجمه يتألق لا في البصرة دار النحو فحسب، بل أيضا في بغداد، ويروى أنه قد رحل إلى بغداد وحدث أن التقى بالكسائي مقرئ الكوفة، وإمام النحو هناك، ويقال: إنه لقيه قبل الكسائي بعض أصحابه: الأحمر وهشام والفراء ليوهنوا منه. ولم يلبث صاحبهم أن تعرض له بالسؤال في المسألة الزنبورية، إذ قال له: كيف تقول: "قد كنت أظن أن العقرب أشدُّ لسعةً من الزنبور, فإذا هو هي أو فإذا هو إياها؟ " فقال سيبويه: فإذا هو هي، ولا يجوز النصب. قال الكسائي: لحنت، العرب ترفع ذلك كله وتنصبه. فدفع سيبويه قوله، وطال بينهما الجدال، وكان بالباب نفر من عرب الحطمة النازلين ببغداد، ممن ليسوا في درجة عالية

من الفصاحة، فطلب الكسائي سؤالهم، ولما سُئلوا تابعوه في رأيه. فانكسر سيبويه كما يقول الرواة، وإن كنا نتهم قولهم؛ لأن الحق كان في جانبه؛ لما يقتضيه القياس في هذا الموضع، ولأنه يطرد الرفع فيه في آي الذكر الحكيم من مثل (وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ} , {فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ} , {فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ)، وكأنها هي وما بعدها مبتدأ وخبر. أما النصب فيكون على الحالية. وتوجيهه ضعيف.

وكان سيبويه ونحاة البصرة لا يحتجون بألسنة أهل الحُطَمة لما دخل على سلائقهم من ضعف بسبب إقامتهم في الحاضرة، بل لقد كانوا لا يحتجون بما جاء على ألسنة بعض البدو من لغات شاذة لا تجري مع القياس المستنبط من كثرة ما يدور على ألسنة الفصحاء كالجر بلعل والجزم بلن. ولا بد أن سيبويه شرح ذلك في حواره ومناظرته مع الكسائي، وإن كان الرواة للحادثة لم يدونوه. ويقال: إن يحيى البرمكي أجازه بعشرة آلاف دينار، ويظهر أنه لم تطب له الإقامة ببغداد فولى وجهه نحو موطنه، غير أن الموت عاجله، واختلف الرواة في تاريخ وفاته، والأرجح أنه توفي سنة ١٨٠ للهجرة.

- تأليف الكتاب:

من المؤكد أن سيبويه بدأ تأليف الكتاب بعد وفاة الخليل، إذ نراه في بعض المواضع يعقب على ذكره لاسمه بكلمة "رحمه الله". وقد حمله عنه تلميذه الأخفش الأوسط سعيد بن مسعدة، وأذاعه في الناس باسم "الكتاب" عَلَما اختص به هذا المصنَّف وحده دون بقية المصنفات في عصره، بحيث كان يقال في البصرة: "قرأ فلان الكتاب" فيُعلم أنه كتاب سيبويه دون شك. وظل هذا الاسم خاصا به، دلالة على روعة تأليفه وإحكامه. ونرى كثيرين من النحاة وغيرهم ينوهون به تنويها عظيما، من ذلك قول أبي عثمان المازني تلميذ الأخفش من أراد أن يعمل كتابا كبيرا في النحو بعد كتاب سيبويه فليستحِ", ويقول الجاحظ: "أردت الخروج إلى محمد بن عبد الملك "الزيات وزير المعتصم" ففكرت في شيء أهديه إليه، فلم أجد

شيئا أشرف من كتاب سيبويه، وقلت له: أردت أن أهدي إليك شيئا، ففكرت، فإذا كل شيء عندك، فلم أر أشرف من هذا الكتاب، وقد اشتريته من ميراث الفراء، فقال ابن عبد الملك: والله ما أهديت إلي شيئا أحب إلي منه". ويقول أبو الطيب اللغوي فيه وفي كتابه: "هو أعلم الناس بالنحو بعد الخليل، وألف كتابه الذي سماه الناس قرآن النحو". ويقول السيرافي: "وعمل كتابه الذي لم يسبقه إلى مثله أحد قبله، ولم يلحق به من بعده". ويقول المبرد: "لم يعمل كتاب في علم من العلوم مثل كتاب سيبويه".

ولقد نسَّق سيبويه أبوابه وأحكمها إحكاما دقيقا، خاصة إذا عرفنا أنه أول كتاب جامع في قواعد النحو والصرف. وقد جعله في قسمين كبيرين:

أما القسم الأول: فخصّه بالنحو ومباحثه، وكاد لا يترك في هذه المباحث جانبا إلا استقصاه من جميع أطرافه في الجزء الأول من الكتاب وأوائل الجزء الثاني، حتى إذا فرغ من هذه المباحث انتقل يبسط في دقة. القسم الثاني وما يخوض فيه من المباحث الصرفية، محيطا بكل تفاصيلها إحاطة تامة، وأصل لها بمادة صوتية واسعة من مثل الحديث عن الإمالة والوقف والروم والإشمام والإشباع وما إلى ذلك.

وقد تحول ما ذكره من قواعد النحو والصرف إلى ما يشبه نجوما قطبية ثابتة, ظل النحاة بعده إلى اليوم يهتدون بأضوائها في مباحثهم ومصنفاتهم. ويمكن أن نقول بصفة عامة: إن الكثرة من المصطلحات النحوية والصرفية التي لا تزال شائعة على كل لسان في عصرنا, كان لكتابه الفضل الأول في إشاعتها وإذاعتها طوال العصور، وكأنه لم يترك للنحاة من بعده إلا ما لا خطر له، كما قال صاعد آنفا، كأن يميزوا بعض المصطلحات أو يضيفوا مصطلحات جديدة لغرض الدقة في التوضيح، فمن ذلك أنه عرض لأبواب التوابع عرضا واسعا، وجرت على لسانه كلمات النعت والبدل والتوكيد والعطف ويريد به عطف البيان، ولكنها جميعا يتداخل بعضها في بعض، بحيث يسميها أحيانا صفة, وقد يسمي عطف البيان نعتا١، وجعل التوكيد

قسمين: قسما مكررا وقسما غير مكرر٢، وسماهما خالفوه التوكيد اللفظي والتوكيد المعنوي. وكان يسمي عطف النسق الشركة وحروفه مثل الواو حروف الإشراك٣. وقد لا يضع الاصطلاح الخاص المميز كأن نجده يقول: "هذا باب نظائر ضربته ضربة, ورميته رمية"٤, وسمى النحاة الباب بعده "اسم المرة". ويقول: "هذا باب ما عالجت به"٥, وسماه النحاة بعده "اسم الآلة" مثل المقص...ومن ذلك عنوانه في أول الكتاب: "هذا باب مجاري أواخر الكلم من العربية"٣ وهو ما سماه النحاة بعده باسم "أنواع الإعراب والبناء".

وفي الكتاب مواضع كثيرة غامضة ومبهمة، وبعض المواضع تحتاج إلى بسط قول وشرح لم يفصل فيها صاحب الكتاب، لذلك تناوله كثير من النحاة بعده بالشرح والتفسير والتعليق وفي مقدمتهم تلميذه الأخفش وأصحابه من مثل الجَرْمي والمازني، وكلما تقدمنا مع الزمن تكاثرت شروحه وتفسيراته، والتعليقات عليه، ومن أشهرها شرح السيرافي وشرح الرماني. وعُنُوا عناية واسعة بشرح شواهده.